خواص الأجناس البشرية
وأثرها فى العقول

العوارض المختلفة التى تظهر فى الأشخاص وتميز بعضها من بعض أكثرها ناشئ من اختلاف الأجناس. فإن لكل جنس أوصافًا عامة تدل عليه، ومدنية خاصة تميزه من سواه فى طرق الفهم والإدراك. وإذا كانت أفراد الجنس الواحد تختلف بعض الاختلاف فى شىء من الصفات الخاصة فإنها تتفق فى الأوصاف العامة. فالجنس الآرى مثلا الذى منه سكان أوروبا يختلف أفراده بعضها عن بعض اختلافات بينة فى مجموع مدنياتها، ولكنها تتفق فى الأمور العامة، كالنوع الجرمانى الذى منه أكثر أمم النمسا وممالك ألمانيا ومعظم أهل أوروبا الوسطى. فأن هؤلاء من الجنس الآرى ولكن بينهم بعض الاختلافات فى تكوين مدنياتهم. والنوع اللاتينى فى جملته يميل إلى الرقة ولين الأخلاق، ودقة الفهم فى الفنون الجميلة، ويحب الحرية فى كل شىء، ول يرغب كثيرًا فى التقيد بالقوانين والقواعد، حتى فى العلوم، حساس، كثير الخيال، خفيف الروح، يميل إلى المجون، وله صبغة خاصة فى الفنون كالموسيقى والتصوير، فإنها عند الإيطاليين والفرنسويين أدق وأخف على النفس منها عند الجرمانيين، وهى أمتن وأبرع فى الصناعة وأضخم عند الجرمانيين منها عند جيرانهم. هذا مثل ضربناه، ومثل ذلك يقال فى المباحث العلمية والأدبية، فإن الطريقة الجرمانية تميل إلى القواعد والقوانين فى كل شىء، لأن الفكر الألمانى قاعدى، أى ميال إلى القوانين، وإلى بناء كل شىء على قاعدة، يرغب فى أن تكون الفنون كالعلوم ذات قواعد ثابتة لا تتغير.

والطريقة العلمية فى دراسة البلاغة ظهرت أولا فى ألمانيا. وتين ورينان وغيرهم من رؤساء الحركة الإيجابية والطرق العلمية فى البحث أخذوا ذلك عن الألمانيين. هذه الفروقات نجدها أوضح وأكبر منها بين الأجناس. وقد أثبت العلماء والباحثون أن بين الأجناس وبين أفرادها فروقًا عقلية فى كيفية الإدراك والتصور، فإن خصوبة العقول عند بعض الأجناس أكثر منها فى غيرها(١).

فقد قالوا: إن الأمم التى هى أسبق من غيرها فى مضمار المدنية واكتسابها، والتى يظهر فيها التقدم والانتقال أسرع مما يظهر فى غيرها، تكون أعرق فى الحضارة. ومن هنا يظهر أن فى الأمم من هو أرقى من غيره، ومن هو أحط من سواه. ففى بعض الأمم أو فى بعض الأجناس نجد "الإنسانية" ومعناها أكثر منها فى غيرها. أى نجد ما يميز الإنسان من عقل وذكاء واستعداد للرقى وميل إلى العلوم والفنون والأدب أظهر. على حين أننا نجد الوقوف والخمول وعدم الاهتمام بالتربية فى جنس آخر(٢).

---

(١) لاحظ الدكتور "جوستاف ليبون" أنه لو أخذ ألفا نفس أوروبى مصادفة بدون اختيار، وألفا هندى أيضًا وجد أن خمسًا وتسعين وتسعمائة من الأوربيين أقل فى استعدادهم الفطرى من الهنود. ولكن لوحظ أنه يوجد بين الأوربيين أنفسهم واحد أو أكثر من أصحاب القرائح والذكاء العظيم، الذين لا يوجد مثلهم فى الهنود. ومعنى هذا أن الفروق التى توجد بين الأجناس لا توزن بالمتوسط فى المجموع، بل فى أن الجنس الأقل ارتقاء لا يحتوى على أفراد كثيرين ممتازين من غيرهم فى الذكاء ولو كان المجموع فى نفسه أرقى من مجموع آخر، فإن الميزة تكون بنسبة النابغين.

(٢) قالوا وأكثر ما تكون هذه الفروق واضحة بين الجنس الأسود والجنس الأبيض. ولكن هذه الاختلافات ليست أصلية فى الإنسان ولا فجائية تحدث فى طبيعته، بل الأزمان والأقاليم هى التى كونت الإنسان وأثرت فيه وأوجدت هذه الفروق (كما أدرك ذلك ابن خلدون وله الفضل فى إدراك هذه الفكرة العلمية) وقد امتد هذا الاختلاف وانتشر فى الأجناس=

هذا الاختلاف الأصلى فى الأجناس سبب الاختلاف فى العقول والتصورات والإدراكات، أو أنه دليل على تغيير النفوس واختلاف إدراكاتها. وكل هذا يظهر فى اللغة وتكوينها.

قال تين فى مقدمة كتابه "تاريخ بلاغة الإنجليز": إذ كان تصور الأمة للأشياء تصورًا افًا، كانت اللغة ضربًا من الرموز أو ما يقرب من ذلك، وكان الدين عبارة عن عقيدة ساذجة، والشعر خيالا "بسيطًا" وكانت الفلسفة أشبه بشىء من النصائح والمواعظ، والعلوم مسائل مجموعة مرصوفة. وهذا يدل على جفاء العقول وجمود الأفكار على ما تقرأ وتسمع: والأمة الصينية هى مثال ذلك. فإذا كان الإدراك العام مرنًا، يشبه أن يكون خيالا شعريًا، كانت اللغة أشبه بالشعر والقصص، سهلة لينة، يكاد يدل كل لفظ منها على نفس أو على إنسان لمرونتها وعذوبتها، وكان فى الدين والشعر شىء كثير من العظمة والجلال، وانتشرت الأفكار الفلسفية انتشارًا عظيمًا. وعلى حسب ذلك يكون إدراك الجمال ودقة الفهم، وسعى العقول وراء الكمال فى تحقيق ما تريد(١).

=ونما بالتوارث ومرور الزمن عبر الخلق والخلق وما يتبع ذلك. قال الباحثون: إن مخ الأوروبى يزن نحو ١٥٣٤ جرامًا ومخ الأفريقى يزن ١٣٧١ جرامًا ومخ الاسترالى يزن ١٢٢٨. وذكروا غير ذلك من الأوصاف مما يهم من يدرس علم الأعضاء ووظائفها. وقالوا من أخلاق الزنوج الشهوات الحادة والميل إلى التقليد الأعمى والخوف من العزلة والنقص فى قوة الاختراع والميل إلى عدم النظام الذى ظهر عندهم فى الغناء والرقص ثم أنهم يخدعون بالظواهر ويحبون الزينة والألوان التى تبهر الأبصار. وعلى الجملة فالزنجى إنسان شهوى ميال للسرور، ثرثار، لا يعرف الرزانة، ولا يفكر فى المستقبل، كسلان خمل، وقالوا: أنه رغم ما فى الجنس الأسود من المزايا الإنسانية، فإنه لا يعرف عنه أثر أدبى، ولا شىء من علامات التمدين.

(١) وقد وازن رنان فى كتابه "تاريخ اللغات السامية" بين الجنس السامى والجنس الآرى.=

إن مسألة الجنس من حيث أثرها فى الأمم وعقولها، مسألة غير مسلم بها على إطلاقها. ولا يمكن أن يسلم بها إنسان مفكر تسليمًا مطلقًا. لأن مذهب الفيلسوف تين فى ذلك مذهب أصبح الآن متهمًا بالمبالغة وعدم التحقيق. ولأن الحوادث أثبتت لنا أن بعض الشعوب الصغيرة التى اتخذها أصحاب هذا المذهب برهانًا ودليلا على نظرياتهم ظهرت فيها قدرة تكاد تضارع أهل الجنس الأبيض. والحوادث والأيام تبرهن على تأييد هؤلاء. والحقيقة أن السبب فى هذا الاختلاف الذى نراه فى الأمم وتربيتها راجع إلى البيئة والحوادث. ونضرب لذلك مثلا بحالة العرب قبل الإسلام وبعده: فقد كانوا فى جاهليتهم لا يعرفون عيشتهم الساذجة وحياتهم الفطرية، ولا يدركون من أحوال الاجتماع غير شن الغارات والحروب، وكان العربى ليس له إلا سيفه ورمحه ومركبه، ولم يكن من طبيعة بلاده أن تحرك من فكره، أو

=وقال أن الأمم السامية كلها على اختلاف نزعاتها أمم قصيرة الخيال جافة التصور، تدرك الأشياء إدراكًا أوليًا، ولا تتعمق فى بحثها، ولا تسترسل فى كشف الحقائق ومعرفتها، وتحكم على الأشياء لأول وهلة، حكم المعتقد الجازم بصحة الشىء الذى أقنعته التجاريب والبراهين القطعية خيالاتها محدودة، وإدراكاتها محدودة، ونظاماتها الاجتماعية معروفة محدودة، لا تعرف التطور والانتقال، غير قابلة للمرونة، وغير أهل للتقدم، ليس فى نظامات حكومتها ما يدل على سعة الإدراك، ولا على أثر التفكير، وليس لها فى عالم الأدب والفنون أثر يذكر بالنسبة لما تركته الأمم الأخرى، مما يدل على مجدها ومظاهر الرقى فى الاجتماع وفى باب الفنون. وقال أن الأمم السامية لا فلسفة لها ولا أثر للقوانين والنظامات عندها. وأن الشرائع التى أرشدت العالم ومحت منه ظلمات الجهالة لا وجود لها عند الأمم السامية. وقال أن ذلك كله يرى فى بلاغاتهم. ربما كان شىء من ذلك صحيحًا، وربما كانت الأمم السامية أقل من غيرها أثرًا فى العلم والفلسفة والأدب والاجتماع. ولكن هل هذا يدل على أن ذلك جاءهم من أصلهم السامى؟ إن رينان يبالغ فى مثل هذه المابحث وكأنه عدو لدود للأمم السامية.

توسع من خيـاله. فنشأ ونشأت أفكاره صـورة صحيحـة من البيئـة التى كان يعيش فيها، ولم يعرف من العلوم والفلسفة إلا ما أوحت إليه نفسه وما دفعته الضرورة لمعـرفته، ولم يتـعلم من الفنون إلا جمال القـول. وقد توارث ذلك عن آبائه وأجداده، وتعود هذا النوع من العـيش، ومرت الأزمان والأيام وهو كذلك. فلم يكن له من الفرصـة ما يمكنه من تغيير حاله، أو مـا يدفعه إلى التقدم، أو ما يغير إدراكه وتصـوره للحياة والاجتماع. ولبث على هذه الحال دهرًا طويلا. ولما جاء الإسلام وانتـشر واختلط العرب بغـيرهم، أخذوا عنهم النظامـات وسنو الشرائع والقـوانين، واكتسـبوا من الدين وتعـاليمـه ما غـير حالتـهم الاجتماعـية والسياسـية واستفـادوا من القرآن الحكم فائدة عظيـمة، ونظموا الحكومات وأسسوا الممالك والجيوش، وغير ذلك.

ولما احتك الأمويين بالروم ومدنيتهـم، أخذوا عنهم كثيرًا من أبهة الملك ونظام الحكومـة. وكان لمعاويـة بن أبى سفيـان الجند والحشم وتناسـى العرب خشـونة البدو، واعـتادوا الرفاهيـة والحضـارة. كذلك كان الأمـر فى الدولة العبـاسيـة: فقـد اكتسب الـعرب مدنيـة الفرس وغـيروا كـثيرًا من عـاداتهم وأخـلاقهم، وأنواع الـفهم والإدراك ونظام العـيش والحكومـة والاجـتمـاع. وتهيـأت عقولهم وأفكارهم لقبـول فلسفة اليـونان ومدنيتهم العـقلية والمادية. وظهر فيهم العلماء والفلاسفة والمؤرخون، مما لم يكن له أثر قبل فى عربيتهم العرباء. وارتقت معارفهم وزادت مـعلوماتهم، ووسعت إدراكاتهم كل ما طرأ عليـهم من الخارج. وبالجـملة تغـيرت خـواص جنسـيتـهم العامـة، وأشبـه استـعدادهم استـعداد الأمم الأخـرى، ولم يمنعهم جنسهـم من الاندماج فى غيـرهم والأخذ عنهم، ومشابـهتهم بعض الشبـه لهم. ولولا الدين وسلطانه

وغلبتـه على نفوس المسلمين لاندمـجوا اندماجًا كليًـا فى غيرهم، ولتغـيرت عقائدهم وحـالتهم الاجتماعيـة تغيرًا تامًا. وعرب الأندلس كانوا غـير عرب أفريقـية، وهؤلاء كانوا غـير سكان نجد والحجـاز، على أنهم كلهم من جنس واحد وأصل واحد.

من أجل ذلك لا يصـح النظر إلى مـسـألة الجنس والأخـذ بهـا على إطلاقها. لأن المؤثر الأصلى فى تكوين الجنس هو البيئة. إذ الجنس أو الأصل الواحد، معناه أن جماعة سكنوا مكـانًا واحدًا، أو منطقة واحدة، تشابهوا فى كثير من العادات والأخلاق العامـة وطرق الفهم والإدراك، مما كونته البيئة فى أخلاقهم واستعدادتهم على شكل خاص. وجاءهم هذا التكوين بمرور الأزمان واختلاف الأحقاب، فاندمجوا فى البيئة التى تربوا فيها. فإن عوارض ومميزات الجنس الأسود مثـلا تحتاج إلى مئات من السنين لتـتكون هذا التكوين الخاص الذى هو من طبيـعة الأقاليم، ثم يتوارث بعض الأفـراد عن بعض ذلك حتى تصبح هذه الأوصاف صفة لازمة للسكان.

هذا هو الأصل فى مـسـألة الجنس. ونحـن نرى أن الإنسـان يمكنه أن يعيش فى اجـتماع غـير اجتمـاعه الأصلى فتـختلف إدراكاته ومـواهبه، لأن الإنسان حيوان مقلد أكثر منه ناطقًـا. وعلى ذلك يجب أن تكوين البيئة سابقة للجنس لا العكس. إذا لأجل أن يـتكون الجنس بأوصافـه لابد من أن يبـقى الإنسان فى بيئة خاصة مدة طويلة ليـتشكل بشكلها. وليس الغرض من البيئة البيئة الجغرافية فقط، بل ذلك يشمل البيـئة الاجتماعية أيضًا فإن أثر الاجتماع فى الأفكار لا يقل عن أثر الأقاليم فيها. إذ القسيس أو المتدين الذى تربى فى بيئة تربية دينية هو غير العالم الذى تربى فى بيئة علمية. فلا يمكن قبول رأى

تين على ظاهرة مـن أن الجنس له أثر خـاص بدون أن ننظر إلى أثر الأزمـان والبيئات فى ذلك.

لا شك فى أن الآداب السامية غـير الآداب الآرية وأن العقول والأفكار عند السامعـين غيرها عند الآريين. ولكن أليس معنـى ذلك أن تصور السامى وتربيته وتعليمه غيرها عند الآرى؟ وهـل ذلك غير أثر البيئة وتأثير الإقليم؟. فإذا كان الشعر العربى غير الشعر اليـونانى مثلا فذلك لأن حياة العربى جملته على هذا النوع من الخيال. وربما كانت هناك أسباب تاريخية واجتماعية جعلته لا يتصور ولا يفهم إلا على هذا النحـو. وربما لم يكن العربى فى حاجة إلى أنواع الحكومـات المنتظمـة والقوانين المـسنونة، لأنه كان يعـيش عـيشـة ابن السبيل، ولـو كان ذلك ضروريًا لحفظ حيـاته ونظامها لحملتـه الضرورة على الفكر والاستنباط والابتكار لمثل هذه الأشياء.

وسواء أصح مـذهب تين أم لم يصح فى أثر الجنس فى الأمم فمـما لا نزاع فـيـه أننا نجـد اختـلافـات ظاهرة فى الأمم المخـتلفـة من حـيث العلوم والمعـارف، ومن حـيث التـصـور والإدراك. وهذا كله يظهـر فى آداب الأمم وبلاغاتهـا لأن الأدب تابع لكل هذه المؤثرات، فهو يتغـير بتغيـرها، ويتشكل بأشكالهـا، لأنه صـورة عـامة من صـور الأمم وحـيـاتهـا. وذلك كله تابع لاختلاف الفطر وأسبابها فى الإنسان.

***